

بناء المجتمع المدني وتنميته
في

السيرة النبوية



أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري

أستاذ السيرة النبوية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض (سابقاً)

بناء المجتمع المدني
وتنميته في السيرة النبوية

٢ دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ

فهرست، مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمري، عبدالعزيز بن إبراهيم

بناء المجتمع المدني وتنميته في السيرة النبوية/

عبدالعزیز بن إبراهيم العمري

الرياض، ١٤٣٦هـ

١١٦ ص ٢٠×١٤

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٧١٠١-٩

٢. السيرة النبوية

١. المجتمع المدني

أ. العنوان

ديوي ٩٥٣

١٤٣٦/١٤١٧

رقم الايداع: ١٤٣٦/١٤١٧هـ

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٧١٠١-٩

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص. ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ - ٤٩٦٨٩٩٤ فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣

E-mail eshbelia@hotmail.com



بناء المجتمع المدني وتنميته في السيرة النبوية

تأليف

أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري

أستاذ السيرة النبوية

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض (سابقاً)

الطبعة الأولى

دار كوكبنا
للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن
والآه وبعد: فقد كتبت وقرأت كثيرًا في سيرة المصطفى ﷺ،
فوجدت خدمة الإنسان وحياته المجتمعية وتنظيمها وبناء العدالة
المساواة فيها من أهم ما جاء به ﷺ، كيف لا وقد قال الله تعالى
فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. كانت
هذه الرحمة تعني الحياة المطمئنة وتيسير أمور المعيشة، بالإضافة
لسعادة الآخرة.

وجدت ذلك ماثلاً في ثنايا السنة والسيرة وكتبت عن ذلك من
خلال كتابي في السيرة "رسول الله وخاتم النبيين"، كما طرحت هذا
الموضوع في مؤتمرات علمية مختلفة، وقد رأيت إخراج هذا الموضوع في
بحث مستقل وبعنوانه المشار إليه "بناء المجتمع المدني وتنميته في السيرة
النبوية"، تقريباً لأذهان المعاصرين، والمطلعين على الثقافات المختلفة،
ليروا أن المصطفى ﷺ سبق كل العصور في تنظيم الحياة المدنية
ومجتمعاتها وتحقيق الحياة الحرة الكريمة العادلة للمسلمين بل وحتى

بناء المجتمع المدني وتنميته في السيرة النبوية

٦

غير المسلمين ممن يرغبون في الحياة المسالمة والاندماج في المجتمعات
وتأدية الحقوق والواجبات.

أسأل الله أن يردنا إليه ردًا جميلاً وأن يهباً لنا من أمرنا رشداً.

وأن يعز أمة محمد ﷺ.

* * * * *

تمهيد

ثمة اجتهادات متنوعة في تعريف مفهوم المجتمع المدني. فالمعنى الأصلي للمفهوم هو "المجتمع" الذي يحكمه القانون تحت سلطة الدولة. فالإنسان يهتم بسبل عمله ومعيشته، مع وجود كثيرين يهتمون بالمجتمع، ويكونون على استعداد لتنظيمه مع العطاء لإفادة الجماعة. والمدني نسبة إلى المدينة، ومنها جاءت المدنية والتمدن وهو الأخذ بأسباب الحضارة فالمدينة تجمع للناس بنظام ومسؤولية.

كان واضحًا منذ بعثة الرسول ﷺ، أنه يسعى لنشر عبودية الله سبحانه وتعالى وتوحيده، وإقامة دولة رحيمة ونظام عادل يطبق فيه شرع الله على خلقه، بكل رحمة وعدل. ومنذ الأيام الأولى للدعوة في مكة كان ﷺ يبشر أصحابه بانتشار الإسلام في كل مكان وغلبته بأنظمتها المختلفة. ومكة وما حولها التي بدأت فيها رسالة الإسلام كانت قائمة على الأعراف والعادات ومعظمها جائر، ليس فيها تشريع محدد ولا نظام مؤسسي ولا قضاء منصف.

وجاء الإسلام بحفظ حق الله وحقوق عباده، بما فيها الرحمة والعدل والمساواة مع الضرورات الخمس، كما ذكرها كلٌّ من الغزالي في

"المستصفى" والشاطبي في "الموافقات". والإحسان في كل شيء، مع سياسة داخلية وخارجية تراعي المقومات لأي مجتمع مدني متحضر.

وحين صعب الأمر على الرسول ﷺ في تحويل مكة إلى مجتمع ودولة مسلمة بدأ يبحث في الأماكن والقبائل الأخرى عن يعينه، بمكان مناسب وقوم مساندين لدولة الإسلام، يعيش فيها المسلمون في مجتمع إنساني مسلم مسالم متعاون، مكونين أمة تفوق الأمم الأخرى، وترتبط بالله وشرعه لتقود البشرية للسعادة والكمال، ولتنصف نفسها وأصحاب الديانات الأخرى ممن يطلبون الحياة الكريمة. فأخذ الرسول ﷺ يعرض نفسه على القبائل أثناء مواسم العرب بحثاً عن من ينصره ليقوم؛ مجتمعاً قادراً على تنظيم نفسه والدفاع عن كيانه أمام الأعداء.

ويعون رباني وجد رسول الله ﷺ ما ينشده في الأنصار من أهل المدينة، الذين قابلوه في موسم الحج، وسمعوا له وصدقوه واستعدوا ليجعلوا مدينتهم قاعدة لدعوته ودولته المرتقبة ومجتمع السلم المسلم، مناصرين له بما يتطلب ذلك من نظام وتنظيم.

كان التنظيم النبوي لأعمال الإدارة ووظائف الأمة، وترتيب الدولة وما حملة من أمثلة في السيرة والسنة أساساً اقتبس منه في التنظير للنظم الإسلامية وإدارة الدولة والمجتمع.

كان الظلم يقع على أصحابه عليه السلام في مكة، فيشرهم بأنه سيأتي يوم يمنع فيه الظلم ويقام فيه العدل ليس في مكة وحدها، بل في أصقاع كثيرة يعرفونها، فحين اشتكى خباب بن الأرت ما كان يتعرض له من أذى، وطلب منه عليه السلام أن يدعو على من ظلمه، قال له عليه السلام: ((وَاللَّهِ كَيْتَمَنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)).^(١)

كان موعود الله بانتصار الإسلام واستخلاف المسلمين في الأرض والتمكين لهم يعني قيام تنظيم ونظام يتحقق من خلاله الاستقرار، يجمع بين التشريع وتطبيقه في الواقع من خلال سياسة الدنيا بالدين، هذا الوعد كان واضحاً في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ما لقي النبي عليه السلام وأصحابه من المشركين في مكة، ج ٥/٢٣٨.

إن الاستخلاف في الأرض يعني حكمها وتنظيمها وسياستها وإدارتها.

لقد كان واضحاً للرسول ﷺ أن النظام الإسلامي السياسي الذي أسس له ﷺ سيرت الأنظمة العالمية المعاصرة، كنظام الأكاسرة في فارس، ونظام القياصرة عند الروم. فقد روى جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: ((لَتَفْتَحَنَّ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَثْرَ آلِ كِسْرَى الَّذِي فِي الْأَبْيَضِ))،^(١) وقال ﷺ إثر ضربة في حفر الخندق: ((اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ السَّمَاءِ وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ «بِسْمِ اللَّهِ». وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمُدَائِنَ وَأُبْصِرُ قُصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ «بِسْمِ اللَّهِ». وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»)).^(٢)

(١) انظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص ٢٧١.

(٢) رواه أحمد في مسنده ج ٤/٣٠٣، وحسنه عدد من العلماء منهم ابن حجر (انظر:

د. أكرم ضياء العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢/٤٢٣).

و د. مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة

تحليلية، ص ٤٤٩، هامش ٤٢.

كان ﷺ يُربي أصحابه على امتداد الإسلام ودولته إلى أصقاع الأرض المختلفة في نظام مؤسسي ديني إداري سياسي.

سعى رسول الله ﷺ منذ أيام دعوته الأولى إلى قيام نظام إنساني يسوس الناس على العدل والمساواة، وشغل ﷺ منصب القيادة العليا في الدولة الإسلامية مع شرف النبوة والرسالة في وقت واحد، وأعد أصحابه من بعده لتنظيم العالم كله وإقامة التوحيد والعدل.

وثيقة المدينة

(والتنظيم للمجتمع المدني)

جاء الرسول ﷺ ليقوم مجتمعاً إنسانياً عادلاً، يحفظ حقوق الإنسان وكرامته وأمنه، وجاء بالدين الصحيح، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وكان الناس بالخيار في أن يدخلوا الإسلام، من عدمه، قال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فالناس في ذلك أحرار، بعد أن يبلغهم الأمر. وحينما جاء الرسول ﷺ للمدينة كان المسلمون أقلية مقارنة مع غيرهم من يهود المدينة ومشركيها، ومع ذلك حرص ﷺ على التفاهم مع الجميع، وكتابة عقد بينهم لضمان الحقوق وحمايتها، وقيام حياة آمنة مشتركة في المدينة.

وسعى الرسول ﷺ لتنظيم العلاقة بين السكان مسلمين وغيرهم، وكتب في مرحلة مبكرة معاهدة على ذلك،^(١) (وكان رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة وادع يهود وكتب بينه وبينهم كتاباً، واشترط عليهم أن لا يمالئوا عدوه، وأن ينصروه على من دهمه)،^(٢) وهي ما عرفت بوثيقة المدينة.

إن هذه الوثيقة أو الصحيفة - كما سماها البعض - أو الدستور المشترك كما سماها آخرون،^(٣) ثابتة كتابتها في بداية هجرة الرسول ﷺ، وقبل بعثه للسرايا وغزواته، ووردت روايات أخرى لوثائق وكتب حدثت بين الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين وبين يهود وغيرهم من سكان المدينة لا تنفي الوثيقة الأولى أو تناقضها.

لقد كانت الوثيقة (كتاب مصالحة وحسن جوار على أن يسالموه، ولا يعينوا عليه عدوه، وأن يقفوا بجانبه في وجه من يعاديه ويهدد أمن

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ٥٠١؛ ولدراسة موسعة عن تخريج الروايات الواردة عن الوثيقة انظر: د. أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/ ٢٧٦.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/ ٨٦.

(٣) انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ١٨٠.

المدينة المنورة).^(١)

إن هذه المعاهدة تعني إقامة نظام على رأسه النبي ﷺ وتحديد مسؤوليات أمنية ودفاع عن جميع السكان، مع عدم إكراه أحد على دينه، علمًا أنه في هذه المرحلة كان تهديد المدينة قائم بقوة، فمشركو مكة يصدرون التهديد الواحد تلو الآخر.

ولم يكن واردًا في هذه المعاهدة ولا في غيرها إبعاد أي من يهود أو سكان المدينة من غير المسلمين، ما داموا ملتزمين بشروط المعيشة المشتركة، والسلام الاجتماعي العام لكل سكان المدينة، وما يمكن أن يكون شبيهًا بالمواطنة المشتركة، مع حفظ كل فئة لحقها في الاعتقاد والديانة.

إن هذه المعاهدة المدنية تعد مثالًا لتنظيم عادل ومسؤولية اجتماعية ومرجعية نظامية مكتوبة يرجع إليها، مع أمية الرسول ﷺ، وهي تشبه بعض الأنظمة في الدول الحديثة التي تتيح حرية الدين وعدم الإكراه عليه، مع الالتزام بالأمن والنظام المشترك والمسؤولية الجماعية. وهذه المعاهدة اعتبرت أساسًا في قيام دولة المدينة النبوية وتركيز

(١) عبد الحميد طههاز، سيرة النبي، ص ٢٧٣.

المسؤولية فيها بيد الرسول ﷺ، تمهيداً لتطبيق الشريعة حسب نزولها، وتأكيذاً للمسؤولية بيد أعدل الناس ﷺ.

تنمية المدينة ومجتمعها:

جاء الإسلام إلى المجتمعات البشرية ليحببها بطاعة الله وتوحيده ويرفع من مستوى كرامتها، ويعزز النظام، ويرفع الإنتاج، ويحمي البيئة والأرض من الفساد، ويعمرها بما يصلح للإنسانية، وكانت المدينة نموذجاً لهذا الأمر، حيث نظمها ﷺ بالتشريعات المختلفة، والوصايا والأعمال التنظيمية والتنفيذية المدنية، التي جعلت الجميع يتسابقون للإنتاج والعطاء، بدلاً من الكسل والاعتماد على الآخرين أو التشاؤم والسلبية. وبدا الأمر واضحاً على المدينة المنورة التي نمت وتغيرت حالها بعد الهجرة النبوية المباركة.

وتكمن البداية في أشياء معنوية في الظاهر لها أهمية كبرى، فأولها:

تغيير اسم المدينة:

كانت المدينة تعرف عند العرب قبل الإسلام بـ(يثرب)، ومعناه شيء من اللوم، وقد ورد الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ

الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾
[الأحزاب: ١٣].

وقد كره الرسول ﷺ هذا الاسم وأمر بتغييره إلى المدينة،^(١) ومعروف أن الاسم يعني التمدن والحضارة والاستقرار، وما يتبعه من عمل وتنظيم، وعدل وغير ذلك مما يرتبط بالمدينة ومجتمعها.

وردت المدينة في القرآن الكريم أربع مرات، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِن عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

(١) راجع: صالح الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص ٣٠١.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا
إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠].

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا
الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وسماها الرسول ﷺ بأسماء أخرى مثل طابة وطيبة والمباركة
والمشرفة، ودار الإيوان، والحصينة، وكلها أسماء توحى بجمال الاسم
وتدعو إلى التفاؤل. (١)

محبة المدينة وتحريمها:

حرص الرسول ﷺ على جعل حرمة للمدينة، وحدد لها حدوداً
ودعا لها، كما ورد عند البخاري في صحيحه أنه ﷺ قال: ((إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ، وَمَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا)). (٢) كما

(١) صالح الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص ٣٠٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، ج ٤/ ٤٠.

دعا ﷺ: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ))،^(١) ولا شك أن محبة المكان داع للحفاظ عليه ورعايته والإقامة فيه.

كما أصدر ﷺ عددًا من التشريعات لحفظ البيئة والحياة الطبيعية في المدينة، قوله ﷺ: ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ: حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا وَجَاهَا كُلُّهُ، لَا يُحْتَلَى خَلَاهَا، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمَنْ أَشَارَ بِهَا، وَلَا تُقَطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلَّا أَنْ يَعْلَفَ رَجُلٌ بَعِيرُهُ، وَلَا يُحْمَلُ فِيهَا السَّلَاحُ لِقِتَالٍ)).^(٢) وقد ساهمت تلك التشريعات والأوامر النبوية في حماية البيئة الطبيعية للمدينة.

وقد أثنى الرسول ﷺ على أهل المدينة والمقيمين بها والآوين إليها والمهاجرين، كما قال ﷺ: ((إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا)).^(٣)

(١) من حديث رواه البخاري في صحيحه، رقم: ٣٩٢٦؛ ومسلم في صحيحه، رقم: ١٣٧٦؛ وانظر: تحريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص ١٧٦.

(٢) من رواية الإمام أحمد في مسنده، ج ١/١١٩.

(٣) رواه البخاري ومسلم؛ وانظر: تحريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص ٣٢.

وقد وضع مسلم باباً سماه الترغيب في سكن المدينة، ولعل أشهرها ما تداوله الناس باختصار من حديث طويل: ((وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)).^(١)

كما وردت أحاديث كثيرة في الدعاء للمدينة بالبركة، من ذلك ما رواه البخاري ومسلم: ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا وَحَرَّمَتِ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمَ مَكَّةَ وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مُدَّهَا وَصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ)).^(٢) كما قال ﷺ: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدَّهَا وَأَنْقُلْ حُمَاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ)).^(٣)

(١) من رواية البخاري، حديث رقم: ١٨٧٥؛ ومسلم، حديث رقم: ١٣٨٧؛

والإمام مالك، الموطأ، ج ٢/ ٨٨٨؛ وغيرهم؛ انظر: تخرجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضل المدينة، ص ١٩٠.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وانظر: تخرجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة فيه، ص ٢١٥.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، ج ٢/ ٢٢٥؛ انظر: تخرجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، جمعاً ودراسة، ص ٢١٥.

بناء المسجد النبوي:

من أوائل أعمال رسول الله ﷺ في المدينة تحديد موضع مسجده، فقد بركت ناقته عند موضع مسجده ﷺ^(١) حيث كان ((يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ مَرَبِّدًا لِلتَّمْرِ [هو الموضع الذي يجفف فيه التمر] لِسَهْلٍ وَسَهْلٍ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرٍ أَسْعَدَ بْنِ زُرَّارَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكْتَ بِهِ رَاحِلَتُهُ: هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمَرْبِدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالَا: لَا، بَلْ نَهْبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا ، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا)).^(٢)

كان همُّ رسول الله ﷺ إيجاد مسجد يعبد فيه الله وحده لا شريك له،^(٣) وأن لا يأخذ شيئاً من مال هؤلاء الأيتام ولا من مال غيرهم.

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/ ٢٣٧.

(٢) من رواية البخاري في صحيحه واللفظ له، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج ٤/ ٢٥٤.

(٣) ألفت د. سعاد ماهر كتاب "مساجد في السيرة النبوية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧ م.

ورغم أن الرسول ﷺ يأخذ الهبة والهدية، فإنه في هذا الموضع لم يقبلها، بل أمر ﷺ بدفع الثمن من ماله، ولذلك قدر قيمتها ودفع الثمن لها. ويُعد هذا المسجد أول وقف في الإسلام، والموقف هو المصطفى ﷺ.

وقد أعيد بناء المسجد مع شيء من التوسعة بعد غزوة خيبر.^(١) ولا تزال حدود المسجد النبوي زمن الرسول ﷺ معروفة ومعلمة بعلامات خضراء مكتوب عليها بشكل واضح يستطيع زائر المسجد النبوي رؤيتها وقراءة ما هو مكتوب عليها.

التنمية السكانية وتوازنها:

كان حريصاً على زيادة السكان في المدينة والتوالد بين المؤمنين، ولذلك فقد فرح ﷺ وفرح المسلمون معه بأول مولود للمهاجرين بعد الهجرة النبوية، فقد روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أَنَّهَا حَمَلَتْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ قَالَتْ: ((فَخَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَتَزَلْتُ قُبَاءً فَوَلَدْتُ بِقُبَاءٍ ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/ ٣٤٥؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/ ٦٣٦.

فَوَضَعَتْهُ فِي حَجْرِهِ ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا ثُمَّ تَقَلَّ فِي فِيهِ فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ
دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ حَنَّكَهُ بِالتَّمْرَةِ ثُمَّ دَعَا لَهُ فَبَرَكَ عَلَيْهِ
وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ. (١)

كما جاءت الأوامر النبوية المختلفة، تؤكد على أهمية تكاثر المسلمين
مع حسن تربيتهم وإعدادهم ومن ذلك قوله ﷺ: ((تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ
الْوُدُودَ فَإِنِّي مُكَائِرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). (٢) وقد جاءت الآيات
القرآنية تأمر بالمحافظة على الولد والتأكيد على رزق الله لهم مع آبائهم في
قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ
فَعْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

وأول إحصاء سكاني عرف في الإسلام كان في عهد الرسول ﷺ،
فقد ورد أن الرسول ﷺ قال: ((اَكْتَبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالْإِسْلَامِ
مِنَ النَّاسِ، يَقُولُ حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ٣٩٠٩؛ كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة

النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة؛ وانظر: ابن أبي شيبه، المغازي، ص ١٥٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/ ٢٤٥.

رَجُلٍ))^(١) كان هذا اهتماماً مباشراً لمعرفة الطاقات البشرية وكان ﷺ يوجه كل فرد لما يصلح له.

ومن المعروف حث الرسول ﷺ على الهجرة إلى المدينة، ومع ذلك فقد كان حريصاً على ضبط الأمور، وأن لا تخرج عن الحدود وتربك المدينة وتنظيمها، وتوقع الخلل في تركيبها السكانية، ولذلك حينما أسلمت بعض القبائل وأرادت الهجرة بكاملها إلى المدينة أمرهم الرسول ﷺ أن يلزموا ديارهم، ويتعلم بعضهم من بعض، ويكونوا مستعدين لأوامره.^(٢) كما أوقفت الهجرة بعد فتح مكة،^(٣) مما يعني الإبقاء على توازن سكاني في المدينة وفي غيرها.^(٤)

ليس هذا فحسب، بل إن التوزيع السكاني داخل المدينة نفسها كان مهماً، ولذلك لما بنى الرسول ﷺ مسجده النبوي، وعلم الأنصار بفضل الصلوة فيه أراد بنو سلمة أن يتركوا منازلهم في أطراف المدينة

(١) الخزاعي، تخریج الدلالات السمعية، ص ٢٣٠.

(٢) انظر: عمر بن شبة، تاریخ المدينة، ج ٢/٤٨٢ - ٤٨٨.

(٣) ابن أبي شيبه، المغازي، ص ٣٤٧؛ عمر بن شبة، تاریخ المدينة، ج ٢/٤٨٣.

(٤) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٣٤٠٥، ٣٤٠٦، ٣٤٠٧، باب: ٥٤، يلي باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح.

ويقتربوا بمساكنهم من المسجد النبوي فلم يجذب الرسول ﷺ ذلك منهم، كما في رواية أنس: ((أَرَادَ بَنُو سَلِيمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فَكَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُعْرَى الْمَدِينَةُ، وَقَالَ: يَا بَنِي سَلِيمَةَ، أَلَا تَحْتَسِبُونَ أَثَارَكُمْ، فَأَقَامُوا)).^(١)

التنمية المعنوية:

إن زيادة عدد السكان كما دون الاهتمام بالتنوع والتميز لا قيمة له، ولذلك فإن رسول الله ﷺ كان حريصاً أن يحس كل مسلم بتميزه ومكانته دون تكبر، مقروناً ذلك بالخشوع لله والخضوع لله واللين مع المسلمين والرحمة للعالمين، وذلك يلزم تغذية الروح المعنوية وتقويتها لدى جميع الأفراد، وبناء الثقة في نفس الإنسان منذ أيامه الأولى في الحياة، وتقوية حاله النفسية، ابتداءً باسمه الذي ينادى به، حيث حرص الرسول ﷺ على التسمية بأفضل الأسماء،^(٢) بل وتغيير الأسماء القبيحة إلى حسنة والكنى السيئة إلى طيبة، ولذلك فإنه شارك في تسمية

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة،

حديث رقم: ١٨٨٧.

(٢) انظر: د. عدنان الوزان، موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، ج ٥ / ٣٥.

عدد من المواليد في أيامه ﷺ من أمثال عبد الله بن الزبير،^(١) والحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.^(٢) وغيرهم من المواليد في المدينة بعد الهجرة.

كما غير أسماء بعض المهاجرين، فقد كان رجل يدعى جُعيل فسماه عَمْرًا،^(٣) كما كان ﷺ يعطي الشباب وعامة الناس دفعات معنوية من خلال مناداتهم بأحب الأسماء والألقاب والكنى إليهم، فينادي الصغير يا بُني ويناديهم بكناهم، فينادي أَخًا لأنس بن مالك صغير فيقول: ((يا أبا عُمَيْر))، هذا كله في آحاد الناس وأفرادهم.

أما عموم أمه محمد ﷺ فإن الله سبحانه وتعالى قال عنها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فهل بعد هذا النداء من ذلة أو قعود؟ إنه رفع لشأن أمة محمد ﷺ من بين سائر الأمم فردًا فردًا وجماعة.

(١) رواه ابن أبي شيبعة في المغازي، ص ١٥٣؛ وانظر: رواية البخاري في فتح الباري، ج ١٥ / ١٠٤.

(٢) انظر: عبد العزيز العمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة، (المعاشون للرسول ﷺ)، القسم الخامس، ص ١٢١١.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج ٤ / ٢٤٥؛ ترجمة: جُعيل بن سراقه الضمري.

التنمية العلمية:

جاء الإسلام منذ نزول القرآن وأول آياته على الرسول ﷺ الأمي ليذكر بالعلم والقلم، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].^(١) في وقت كان العرب يسودهم الجهل والامية والخرافات والأساطير، مع وجود نزر بسيط من التعليم في المراكز الحضرية.

وقد هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وهو يبحث على العلم والتعليم،^(٢) ويرفع من مكانته في نفوس المسلمين. ولا شك إن لذلك الأمر تأثيره على مجتمع المدينة في تنميته من الناحية العلمية، فكانت مجالسه مجالس علم.

وقد كان الصحابة يقرؤون قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ

(١) لمزيد من التوسع راجع كتاب: الحربي، محمد بن أحمد، إقراء باسم ربك، ط١، نادي جازان الأدبي، ١٤٢٢هـ.

(٢) لمزيد من التوسع راجع كتاب: الوكيل: محمد السيد، الحركة العلمية في عصر- الرسول وخلفائه الراشدون، ط١، دار المجتمع، جدة، ١٤٠٦هـ.

لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا
فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿ [المجادلة: ١١].

وقد وضع البخاري في صحيحه كتاباً سماه كتاب العلم،^(١) أورد فيه
ثلاثة وخمسين باباً، في أحاديث عديدة وشرح آيات مختلفة مثل قوله
تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ أَمَّا النَّاسُ أَتَى الْكَيْلَ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو
رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].
وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ
كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾
[فاطر: ٢٨].

وقد قال الرسول ﷺ: ((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا
فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا

(١) انظر: صحيح البخاري، الكتاب الثالث، كتاب العلم، وفيه (٥٣) باباً من
الحديث رقم: ٥٩ إلى الحديث رقم: ١٣٤.

وَيُعَلِّمُهَا)).^(١) وكان الرسول ﷺ يأمر المتعلم بتعليم الآخرين، فقد حث النبي ﷺ وقد عبد القيس على تعليم قومهم، فقال لهم: ((ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ)).^(٢)

والكتابة في المدينة كانت تتركز بالدرجة الأولى لدى اليهود، الذين كانوا يعرفون الكتابة والقراءة ويعلمونها أبناءهم فيما يعرف بالمدارس،^(٣) وكان تركيزهم على الحروف العبرية يكتبون بها اللغة العربية. وقد تعلم على يهود بعض الأوس والخزرج، منهم بعض كتّاب النبي ﷺ من الأنصار.^(٤) وقد عرف المسلمون قيمة الكتابة قبل الهجرة، حيث نجد أن فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد في مكة كانا يقرآن سورة طه من صحيفة بين أيديهم مع خباب بن الأرت، وذلك حين دخل عليهم عمر بن الخطاب واكتشف إسلامهم.^(٥)

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ٧٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٨٧.

(٣) راجع: محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، ص ٩٩.

(٤) انظر: مصطفى الأعظمي، كُتّاب النبي ﷺ، المكتب الإسلامي، ط ١، بيروت، ١٤٠١هـ.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١ / ٣٤٥؛ وانظر: عبد العزيز العمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة -، (إسلام عمر بن الخطاب ﷺ).

وقد كان تعلم القراءة والكتابة من أهداف كثير من الصحابة في المدينة بعد الهجرة. وقد كان عبادة بن الصامت رضي الله عنه يُعلِّم أصحاب الصُّفَّة القراءة والكتابة.^(١)

وبعد نهاية غزوة بدر كان هناك مجموعة من الأسرى من مشركي قريش ممن يحسنون الكتابة والقراءة لا مال لديهم لفداء أنفسهم من الأسر، فقبل الرسول ﷺ أن يعلم الواحد منهم عشرة من غلمان المدينة الكتابة والقراءة، مقابل أن يطلق سراحه،^(٢) فتعلم يومئذ الكتابة والقراءة جماعة من غلمان الأنصار. وكان هذا الأمر سبباً في كثرة القراءة والكتابة في مجتمع المدينة، ولا شك أن هؤلاء المتعلمين ساهموا بعد ذلك في تعليم غيرهم.

ولعل الحرص بعد ذلك على كتابة القرآن والسنة التي بدأت في أيام الرسول ﷺ تُعد من أهم أسباب انتشار الكتابة، وكذلك الحال في كُتَّاب النبي ﷺ، الذين ساهموا في كتابة رسائله إلى أمرائه وإلى ملوك

(١) د. أكرم العُمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، القسم الأول، ص ٩٦.
 (٢) انظر: عبد العزيز العُمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة -، (غزوة بدر)، القسم الثالث، ص ٦٠٧.

العالم الذين وصل عددهم بعد ذلك إلى قرابة ستين كاتباً.^(١)

ولعل أهمية حقوق الآخرين وضرورة توثيقها تعد دافعاً رئيسياً للكتابة. وهذا ما أشارت إليه أطول آية في القرآن الكريم التي عرفت بآية الدين في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا

(١) انظر: مصطفى الأعظمي، كتاب النبي ﷺ، ص ١٧٩؛ وانظر: محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة؛ وأحمد عبد الرحمن عيسى، كتاب الوحي، دار اللواء، ط ١، الرياض، ١٤٠٠ هـ؛ وجمال الدين أبي عبد الله محمد بن أبي حنيفة، المصباح المضيء في كتاب النبي ﷺ.

تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وعُرف أن بعض النساء كنَّ يُجِدْنَ الكتابة ويعلمنَّها بعض النساء في عصر الرسول ﷺ، ولعل ذلك كان بتشجيع من النبي ﷺ، ولا شك أنه بإقرار منه، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال للشفاء بنت عبد الله - وهي من بني عدي بن كعب من قريش - أسلمت وهاجرت إلى المدينة ((أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقِيَّةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ)).^(١)

وإذا كانت الشفاء قد علّمت أم المؤمنين حفصة الكتابة فإنه لا يستبعد أنها علّمت غيرها من النساء، كما أنه وجد غيرها من معلمات النساء القراءة والكتابة في المدينة في العصر النبوي.^(٢) ونحن نعلم أن الحث على العلم والتعلم الوارد في السنة النبوية وقبلة في القرآن الكريم ليس خاصاً بالرجال دون النساء، بل عامّاً للأمة بكافة أجناسها وأعمارها وفئاتها.

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣ / ٢٤.

(٢) انظر: عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر- النبوي، (القراءة والكتابة)، ص ٣٥.

ولعل تصوّر عدد الكُتّاب في المدينة قبل هجرة النبي ﷺ وارتفاع عددهم بعد الهجرة بحوالي أربع سنوات، يعطينا انطباعاً عن مدى انتشار الكتابة في المدينة بعد الهجرة، وتأثير مباشر من الرسول ﷺ وأحكام الشريعة وتطبيقها، حيث من المتوقع أن العدد تضاعف ثلاث أو أربع مرات.

مع التأكيد - في الوقت نفسه - على حال النبي ﷺ وأن أميته معجزة في حقه: قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَزَّتْكَ أَلْيَانُ الْمُبْتَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

التنمية الاجتماعية:

كان مجتمع المدينة قبل الإسلام وهجرة النبي ﷺ كأى مجتمع عربي جاهلي تسوده أعراف وعادات قبلية، فيها الكثير من الجهل وبعض من تلك العادات كان مستحسنًا. وأينما حل الرسول ﷺ، وهو المبعوث رحمة للعالمين، حلت معه الأخلاق العالية والصفات الحميدة التي جاء بها، والتي تمد يد التغيير الاجتماعي في مجتمع المدينة.

* ولعل من أهم القضايا المساهمة في التلاحم الاجتماعي وتحديد المسؤولية،^(١) ونشر الصدقة والزكاة ومواساة المحتاجين، حيث يعم التكافل الاجتماعي، ومن ذلك ما حصل بين المهاجرين والأنصار، وما حصل للمحتاجين من عامة المسلمين، بل والصدقة والإحسان على غير المسلمين، إضافة إلى التوجيهات النبوية بالعفة والاستغناء عن الآخرين.

* وقد كانت هناك مصادر للدخل تؤدي لفساد أخلاقي واجتماعي حاربها الرسول ﷺ، كالزنا، حيث كان الإسلام حاسماً في تحريمه وتشديد العقوبة عليه، إذ إنه من أهم أبواب الفساد الاجتماعي والأسري، وضياع الأنساب وظهور الأمراض النفسية، وضياع المسؤوليات وقطيعة الأرحام.

وجاء التشديد في ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَفِظُونَ ۗ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦].

(١) حركات: إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر النبوي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٢٣٧.

* كما جعل للأزواج حقوقاً محددة، وأمر بالاحترام وحسن العلاقة بينهما والمودة والرحمة والإحسان المتبادل، وطبق ﷺ ذلك في تعامله مع زوجاته فكان مثلاً حياً في هذا الجانب.^(١)

* كما كانت الخمور تشكل عبئاً كبيراً على المجتمع، وتعد من مصادر الفخر لدى العرب، فجاء الإسلام ليحرمها تدريجياً حتى أصبحت من الكبائر،^(٢) فتغير سلوك كثير من الناس بتحريمها.

* وقد جاء الإسلام لزيادة الروابط الاجتماعية فجعل صلة الرحم من أعظم القربات إلى الله تعالى وتفقد ذوي الأرحام والإحسان إليهم والنفقة عليهم من أبواب الثواب العظيمة مقرونة بالتوحيد والعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

(١) الكمداني: أديب، فن تعامل النبي في الحياة الزوجية، ط١، دار البشائر الإسلامية، دمشق، ١٤٢٥هـ، ص ١٧.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأشربة: (باب إنما الخمر والميسر- والإنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان)، وانظر: الأحاديث من رقم ٥٥٧٥ حتى ٥٦٠٢.

كما جعل بر الوالدين واجباً شرعياً مقروناً بطاعة الله تعالى والتقرب إليه، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وجعل حسن العلاقة بالجار واجباً شرعياً، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وجعل التعاون على البر والتقوى سمة اجتماعية عامة، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

كل هذا زاد التلاحم الاجتماعي وإصلاح المجتمع في المدينة بعد الهجرة، والرقى به وتفقد بعضه بعضاً وعضو البعض عن

الآخرين.^(١) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣٩﴾
وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ﴿الشورى: ٤٠﴾.

ناهيك عن الوصايا العامة في الأخلاق وحسن التعامل
والإعراض عن الجاهلين، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ
يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾
[الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا
بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ [الفرقان: ٧٢].

كما أمر بالدفع بالحسنى عند الضرورة، قال تعالى: ﴿وَلَا
تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ [فصلت: ٣٤].

وجعل الأخلاق العالية هدفاً سامياً للفرد والمجتمع. قال تعالى:
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا

(١) كتبت عدة مؤلفات حول التغيير الاجتماعي من خلال السيرة النبوية من ذلك
كتاب حنان اللحام، هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي. دار الفكر،
بيروت، ودمشق، ط٢، ١٤٢٣هـ.

فِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا
بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَحْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿الحجرات: ١١-
١٢﴾.

وجعل الناس سواسية كأسنان المشط، ولم يفرق بينهم،
وأعلن القرآن أن أصل البشرية واحد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا
خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ
اللَّهِ أَتَقَاتُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿الحجرات: ١٣﴾.

وحرم التكبر والاستعلاء على الآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿الحجرات: ١٨﴾.

وجعل صلاح المجتمعات والأرض عموماً هدفاً عاماً للمسلم،
قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿الأعراف: ٥٦﴾.

وجعل التواصي بالحق والصبر عليه أمراً إنسانياً واجباً، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرَ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ١-٢].

هذه القيم الاجتماعية حلت في مدينة الرسول ﷺ ومجتمعها مع الرسول بعد الهجرة، وأحدثت تنمية اجتماعية لم يعرف تاريخ الإنسانية لها مثيلاً، ولم يتوقف أثرها في المدينة وحدها وفي عصره ﷺ، وأصبحت المدينة طيبة كما سماها الرسول ﷺ.

كما أن العبادات الإسلامية كلها دافعة للقيم ناهية عن الفحشاء والمنكر ومنها الصلاة، قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۝١ رَبِّ الصَّلَاةِ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ۝٢ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۝٣ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ٤٥].

التنمية الصحية:

كانت المدينة قبل وصول الرسول ﷺ تعاني عدداً من المشاكل الصحية لدى السكان، منها ما يرتبط بالبيئة، وخصوصاً الحمى المنتشرة بين أهلها؛ بسبب المزارع وما يرتبط بها من مستنقعات، فدعا لها رسول

الله ﷺ: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا وَصَحْحِهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ))^(١) ومن الواضح من الدعاء اهتمام الرسول ﷺ بصحة المدينة وأهلها.

كما أن الرسول ﷺ مرض كغيره من البشر،^(٢) وشجع الناس على التداوي.^(٣) والبحث عن العلاج في قوله: ((مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً، إِلَّا قَدْ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً)).^(٤) وداوم على التطبُّب. وكان يؤكد على العلاج الطبيعي الصحيح كالعسل وغيره، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: ((الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثٍ: شَرِبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيْتَةِ نَارٍ، وَأُمِّي أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ)).^(٥)

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، ج ٢/ ٢٢٥.

(٢) انظر: مؤنس، حسين، التاريخ الصحي للرسول ﷺ، سلسلة أقرأ، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٣) انظر: الفيروز آبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب، تحقيق: أحمد عبدالرحيم السايح وعمر حمزة، من هدي النبي المسمى "سفر السعادة"، مركز الكتاب، ط ١، ١٤١٧هـ، ص ٢٢٨.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، ج ٢١/ ٢٥٠.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ج ٧/ ٢٠، وانظر شرحه عند ابن حجر، فتح الباري، ج ٢١/ ٣٤٢.

كما وقف ﷺ موقفاً حازماً من الخرافات التي تسبب الأمراض النفسية والجسدية من الطيرة والتشاؤم، وأثبت للناس الفأل الحسن، وكان يأمر باستعمال بعض النباتات كالحبة السوداء وغيرها.^(١)

أما في مجال الطب الوقائي فقد وضع ﷺ أساسه في قوله: ((إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا)).^(٢) كما أنه وضع قواعد مهمّة في الصحة والطب الوقائي والعلاجي، من خلال الحمية وعدم الإسراف في الأكل وصيام الفريضة والتطوع، ومن ذلك قوله: ((مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتُ يُقْمَنَ صَلْبُهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتَلْتُ لِطَعَامِهِ وَتُلْتُ لِشَرَابِهِ وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ)).^(٣)

وكان ﷺ يُقرُّ دعوة الأطباء للمرضى، كما حصل لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين مرض في حجة الوداع.^(٤)

(١) انظر: ابن القيم، الطب النبوي، ص ٢٢٩.

(٢) صحيح البخاري، فتح الباري، ج ٢١/٣٠٣.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣/٦٨.

(٤) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣/١٤٧؛ والبخاري في صحيحه، كتاب

المغازي، باب حجة الوداع، حديث رقم: ٤٤٠٩.

وقد حارب ﷺ الشعوذة وإتيان الكهان للعلاج، وأقر الرقية الصحيحة من القرآن والدعاء ﷺ.

وفي أيامه ﷺ أقيم أول مستشفى في الإسلام، حيث أقامت رُفيدة الأسلمية رضي الله عنها أثناء غزوة الخندق خيمة في مسجد رسول الله ﷺ تداوي فيها الجرحى،^(١) وقد وضع فيها رسول الله ﷺ سعد بن معاذ رضي الله عنه بعد جرحه في غزوة الخندق، فقال: ((اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب)).^(٢) كما ساهمت أوامر الرسول ﷺ بالنظافة والحرص على الاغتسال في الحد من الأمراض وانتشارها. وكان لوصاياه ﷺ في نظافة الأكل وطرق حفظه وتغطيته دور في المحافظة على الصحة العامة للإنسان.

وحث الرسول ﷺ على الختان وبعض الأعمال الجسدية التي تساهم في الحد من الأمراض والجراثيم في قوله: ((الْفِطْرَةُ خَمْسٌ أَوْ خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ، وَالْأَسْتِحْدَادُ، وَتَقْلِيمُ الْأَطْفَرِ، وَتَنْتُفُ الْإِبْطِ،

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/ ٢٣٨؛ وابن حجر، الإصابة، ج ٤/ ٣٠٣؛ الطبري، تاريخه، ج ٣/ ٦٧٣.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/ ٢٣٨.

وَقَصُّ الشَّارِبِ)) (١).

وقد أثرت تلك التعليقات عمومًا في المدينة المنورة، وتأثر بها أهلها وطبقوها في حياتهم العامة والخاصة، وإن كانت موجهة لعامة الأمة، إلا أن مجتمع المدينة في أيام الرسول ﷺ تأثر بها وأحدثت فيه نقلة قبل غيره وساهمت في تطويره صحيحًا ذلك التطور الذي بدأ لحظة وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، ولا يزال أثره إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

التممية الاقتصادية:

كان رسول الله ﷺ منتجًا منذ صباه، فكان قدوة في ذلك، فقد رعى الغنم لأهل مكة، لكي يكسب ويساعد عمه أبا طالب في إعاشة أولاده، وقد قال ﷺ: ((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ، فَقَالَ: نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ^(٢) لِأَهْلِ مَكَّةَ)) (٣) وحين بلغ ﷺ مبلغ الرجال استأجرته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

(١) صحيح مسلم، ج ١/ ١٥٢.

(٢) جمع قيراط، وهو الجزء من الدينار. ابن حجر، فتح الباري، ج ١٠/ ٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، ج ٣/ ٤٨، باب رعي الغنم على قيراط، حديث

رقم: ٢٢٦٢.

ليتاجر لها في مالها،^(١) فكانت له رحلات متعددة لأجل التجارة.

كان ﷺ يبحث على العمل والإنتاج: ((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))، قَالَ: "وَكَانَ دَاوُدُ عليه السلام لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)).^(٢) وكان ﷺ يضرب الأمثلة للصحابة بالأنبياء المنتجين فقال: ((كَانَ زَكَرِيَّا عليه السلام نَجَّارًا)).^(٣)

وكان سلوك الرسول ﷺ مع العاملين في المدينة مشجعاً لهم، فهو يستجيب لدعوة خياط إلى طعام،^(٤) ويودع ابنه إبراهيم للرضاعة عند امرأة حداد.^(٥) وكان لهذه التصرفات وغيرها دور في تغيير نظرة أهل المدينة وغيرهم من العرب الذين كانوا يحتقرون بعض المهن كالحدادة،

(١) انظر: عبد العزيز العمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة -، (زواج الرسول ﷺ من خديجة)، القسم الأول، ص ٢٣١؛ (وترجمتها) في القسم الخامس، ص ١١٤٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب كسب الرجل من عمل يده، حديث رقم: ٢٠٧٢.

(٣) سنن ابن ماجه، ج ٢ / ٧٧٣.

(٤) انظر: صحيح البخاري، ج ٣ / ١٣.

(٥) ابن حجر، الإصابة، ج ٤ / ٩٨.

وغيرها. (١)

وقد ساهمت تشريعات الإسلام المختلفة التي طبقها ﷺ في زيادة الإنتاج في المدينة، ونموها الاقتصادي في المجالات كافة ومنها:

تنمية التجارة:

حينما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة كانت التجارة تتركز في يد اليهود، يسيطرون على أسواقها، وخصوصاً سوق بني قينقاع (٢) المعروف باسمهم، وهو أشهر أسواق المدينة، حين هاجر الرسول ﷺ إليها، وكان حريصاً على أن لا يُغلب المسلمون على الأسواق واقتصاديات المدينة.

وتُعد سوق بني قينقاع أهم أسواق المدينة في العصر الجاهلي، وكان لبعض العرب من الأوس والخزرج نشاط تجاري فيها، مع وجود أسواق صغيرة خاصة بهم، مثل سوق (مزاحم). (٣)

وتتمتاز المدينة بمنتجاتها الزراعية من التمور وغيرها، مما جعل

(١) انظر: عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر- النبوي، موقف الإسلام من الحرف والصناعات)، ص ٤٣.

(٢) عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج ١/ ٣٠٤.

(٣) السمهودي، وفاء الوفاء، ج ٤/ ١٣٠٦.

الأعراب يقدمون إليها لشراء هذه التمور، كما أن أهل مكة وغيرهم يأتون إلى المدينة لشراء التمور والمنتجات الزراعية الأخرى، وبعض المصنوعات البسيطة، وكان اليهود في المدينة يسيطرون على رؤوس الأموال ويقرضون الناس بالربا، وكانت الأموال تساعد في السيطرة والنفوذ داخل المدينة.

وللأوس والخزرج دور في اقتصاديات المدينة، ودورهم الزراعي كان أقوى من التجارة.

وحينما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة كان معظم المهاجرين معه من قريش وفيهم نزعة التجارة، فكان كثير منهم ما أن يصل إلى المدينة حتى يسأل عن السوق، فيشتري ويبيع بحثاً عن الرزق، ومنهم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه،^(١) وعمر بن الخطاب رضي الله عنه.^(٢)

وقد أحس الرسول ﷺ بسيطرة اليهود على التجارة في المدينة عن طريق سيطرتهم على سوق بني قينقاع، فأراد ﷺ أن يجعل للمدينة سوقاً آخر بعيداً عن سيطرة اليهود، فضرب رسول الله قباء في موضع

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب كيف آخى النبي ﷺ

بين أصحابه، حديث رقم: ٣٩٣٧.

(٢) صحيح البخاري، ج ٣/ ١٩.

(بقيع ابن الزبير) فقال: هذا سوقكم، فأغاظ هذا العمل اليهود، وأحسوا بخطر هذا السوق ومنافسته لهم، فجاء كعب بن الأشرف فدخل القبة وقطع أطنابها، فقال رسول الله ﷺ: ((لا جرم لأنقلنها إلى موضع هو أغيب من هذا))، فنقلها إلى موضع سوق المدينة، ثم قال: ((هَذَا سُوقُكُمْ، فَلَا يُصَيِّقُ، وَلَا يُؤْخَذُ فِيهِ خَرَجٌ)).^(١)

منع الرسول ﷺ أن يؤخذ على أحد كراء في سوق المدينة الجديد؛ مما سبب ازدهاره وكثرة الوافدين إليه، وكان اختيار الرسول لهذا السوق موفقاً، حيث كان بمثابة المدخل للمدينة للقادمين من جهة الشام أو من مكة واليمن أو من مواطن القبائل المجاورة الأخرى، مما جعل سوق المسلمين يتلقى الوفود والتجار حال وصولهم إلى المدينة، وقبل وصولهم سوق بني قينقاع، مما أغضب اليهود، ولاشك أن لهذا العمل دوره في ازدهار التجارة والبيع والشراء بين المسلمين وغيرهم وتحريك الجانب الاقتصادي لديهم.

وزادت التجارة في سوق المسلمين بالمدينة تدريجياً؛ نتيجة نشاط

(١) السمهودي، وفاء الوفاء، ج ٢/ ٧٤٩؛ عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج ١/ ٣٠٤؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨.

المهاجرين الذين كان أغلبهم من قريش وهم تجار في الأصل، فكان أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ممن يعملون في البيع والشراء، وكان عثمان وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما ممن يبيعون (البُرّ) في سوق المدينة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يمر على البائعين في سوق المدينة ويشترى منهم ويحذرهم من الغش، وقد كان الصحابة يشاركون في رحلات تجارية من المدينة إلى الشام أيام الرسول صلى الله عليه وسلم.^(١)

تنظيم الدولة وتحديد المسؤوليات:

كانت بلاد العرب - وخصوصاً الحجاز ونجد - بعيدة عن التنظيم السياسي والإداري، خاضعة للأعراف والقبائل التي تدير نفسها عشوائياً، دون سياسة ودولة معينة في الغالب، فلم يعرف في مكة قيادة مسموعة وإدارة مسؤولة، ولا في المدينة شيء من ذلك، حيث ساد عندهم التنظيم القبلي وأعرافه، فرغم أنهم سكان مدن إلا إنها كانت دون تنظيم أو إدارة محددة، حتى أصبحت تحت حكم الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد كانت إدارة الحكم وتنظيمه إحدى العلامات البارزة التي

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢ / ٢٤٩.

جاءت في القرآن، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ٥٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿النساء: ٥٨-٥٩﴾.

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿الحديد: ٢٥﴾.

كان الرسول ﷺ رأس الدولة، ويعين الموظفين والعمال^(١). وكان حريصاً على الإدارة وترتيب المسؤوليات. ومنذ بيعة العقبة الثانية نظم الرسول ﷺ المبايعين وطلب منهم أن يخرجوا له نقباء من بينهم يكونون مسؤولين عن الآخرين لتلقى الأوامر والتوجيهات ومتابعة

(١) انظر: عمال الرسول ﷺ على البلدان عند خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٦٠ (تسمية عماله ﷺ)؛ وعبد العزيز العمري، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين (الولاية على البلدان في العصر النبوي)، ص ٣٩.

التنفيذ كل فيما يخصه. (١)

وكانت البيعة من الرجال والنساء ذات معنى خاص، (٢) وردت في كتاب الله، يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَعْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٢].

كانت أوامر الرسول ﷺ واضحة في ترتيب المسؤولية في أي تجمع قليل أو كثير، فقد قال ﷺ: ((لَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةٍ يَكُونُونَ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا أَمَرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ)). (٣) وكان ﷺ يسوس أمور الدولة العسكرية، ولقد كان التنظيم وترتيب القيادة والسمع والطاعة لها بالمعروف مما ربي عليه الرسول ﷺ الأمة.

(١) انظر: عبد العزيز العُمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة - (بيعة العقبة الثانية)، القسم الثاني، ص ٣٨٤..

(٢) الكتاني، التراتيب الإدارية، ج ١ / ٢٢٢.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢ / ١٧٧

لقد أصبحت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية، وكان الرسول ﷺ هو الحاكم الفعلي للمدينة المنورة مع مقام النبوة، وهو الذي يهتم بإدارة شؤونها، كما كان الرسول ﷺ يستخلف على المدينة من يختاره من أصحابه أثناء غيابه عنها، وقد ذكر أصحاب السير عند كل غزوة اسم من استخلفه الرسول ﷺ على المدينة. ومن أشهر الذين ولاهم الرسول ﷺ على المدينة أثناء غيابه: عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه،^(١) حيث ذكر أنه ولاه قرابة (١٣) مرة،^(٢) منها في غزوة بدر،^(٣) ومنها في غزوة حمراء الأسد وغيرها من الغزوات،^(٤) كما استخلف الرسول ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه على المدينة المنورة في بعض غزواته.^(٥)

-
- (١) عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، صحابي قرشي أسلم قديماً في مكة، كان من المهاجرين الأولين، وهو الأعمى المذكور في سورة (عبس) استشهد في معركة القادسية (ابن حجر، الإصابة، ج ٢/ ٥٢٥).
- (٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٢/ ٥٢٣.
- (٣) خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٩٦.
- (٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/ ١٠١، ١٠٢.
- (٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج ١/ ١٤٨.

ونظم الأمراء والعمال على مختلف الولايات التي عرفت في العصر النبوي وتبعت المدينة ومنها: ولاية اليمن ومكة المكرمة^(١) والطائف والبحرين^(٢) وعمان.^(٣)

كان رسول الله ﷺ وهو قائد الدولة الإسلامية يكثر من مشاورة أصحابه ﷺ، حيث نزلت عليه سورة الشورى لتؤكد هذا المبدأ في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨]. وفي قوله تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد ثبت كثرة مشاورة الرسول ﷺ

(١) الطبري، تاريخه، ج ٣/ ١٢٦. وعتاب بن أسيد هو ابن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس. من قريش، أسلم يوم الفتح، وعينه الرسول ﷺ عاملاً على مكة، توفي الرسول ﷺ وهو عليها فأقره عليها أبو بكر، وتوفي في بداية عهد عمر ﷺ. (ابن سعد، الطبقات، ج ٥/ ٤٤٦، وابن حجر، الإصابة ج ٢/ ٤٥١).

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٩٠.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٩٧؛ السهيلي، الروض الأنف، ج ٤/ ٢٥٠.

للصحابة العاملين معه قبل اتخاذ القرارات المهمة، حتى عرف بعض الصحابة أنهم من أهل شورى رسول الله ﷺ.

العدل والمساواة:

العدالة مبدأ إسلامي وإنساني مهم، يحكم أمور المسلم في كل أحواله العامة والخاصة، وخصوصاً ما يتعلق بالآخرين، إذا تولى عملاً للناس وفضيلة سامية تسمو إلى تحقيقها النظم في كل زمان ومكان، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ

كُتِبَ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿الشورى: ١٥﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٤﴾ مَهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُهمْ هَوَاءُ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا نَبِيهِمُ الْعَذَابُ لِقَوْلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا مِنَ الْجَنَّةِ فَرِيبٍ مُجِبٍ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولِمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّنْ زَوَالٍ ﴿إبراهيم: ٤٠﴾. وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿المائدة: ٨﴾.

ولا شك أن العدالة ليست خاصة في القضاء فقط، بل هي توجيه عام لكل مسلم، وهي من صميم العمل الإداري، حيث إن المسؤول الإداري ينبغي أن يكون عادلاً مع موظفيه، وأن يكون عادلاً مع ذوي العلاقة بالعمل، وأصحاب المصالح المتصلة بعمله، والعدالة مطلوبة من كل إنسان حتى في إدارة عائلته وعمله الخاص، فكيف إذا كان صاحب منصب وعمل متصلاً بعامّة الناس أو خاصتهم.

وقد كان ﷺ يحذر من الظلم ومن ذلك قوله: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)).^(١) كما كان يأمر بتطبيق العدل وإقامة الحدود على الضعيف والقوى، ويحذر من التهاون في ذلك بقوله: ((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَإِيْمَ اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)).^(٢)

كان رسول الله ﷺ يتولى القضاء بنفسه بين الناس،^(٣) يتحرى العدل ويخشى تدليس الخصوم على بعض، ويحذر من الاعتداء على حقوق الآخرين ولو بحكم قضائي، ولذلك ورد أنه ﷺ: ((سَمِعَ خُصُومَةَ بِيَابِ حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخِصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب الظلم ظللمات يوم القيامة، ج ٣ / ٩٩؛ ورواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢ / ٩٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٣٧٣٣.

(٣) للتوسع حول الموضوع انظر: القرطبي، عبد الله محمد بن فرج المالكي، أفضية رسول الله، مطابع قطر الوطنية، الدوحة قطر، (د. ت).

فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَرْكُهَا))^(١).

وقد كان رسول الله ﷺ يقضي بين الناس كافة، ويعمل على أداء الحقوق إلى أهلها سواء كانوا مسلمين أم كفاراً، ويوضح القواعد الأخلاقية للقضاة والخصوم، ويحذر من الكذب في الدعوى، أو اليمين التي تؤدي إلى أخذ الإنسان ما ليس له، فقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ))^(٢). وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]. وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: من الآية ٣٠]. كما كانت توجيهاته واضحة في المساواة بين الخصوم، وعدم الحكم بالهوى وأن يكون القضاء بنظام شرعي واضح ومنه: ((الْبَيْتَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ))^(٣) وطالب القرآن

(١) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٢٤٥٨.

(٢) من حديث البخاري، كتاب الخصومات، حديث رقم: ٢٤١٦.

(٣) وضع البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات (باب ما جاء في البيعة على المدعي)، ج ٣/١٤٦.

بإقامة العدل دون هوى، حتى لو كان الحق على أعز الناس إلى الإنسان، بل حتى لو على نفسه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وورد في الحديث القدسي: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَلَمُوا))^(١).

وقد حذر رسول الله ﷺ قضاة الجور بقوله: ((الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ، قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، قَاضٍ قَضَىٰ بِغَيْرِ حَقٍّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَذَٰكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَىٰ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ فَذَٰكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَىٰ بِحَقٍّ فَذَٰكَ فِي الْجَنَّةِ))^(٢).

كما حرم الإسلام الرشوة، وهي مما يدفع إلى الظلم وغمط الناس حقوقهم، ويؤثر في القضاة والحكام. قال ﷺ: ((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) رواه مسلم في كتاب البر، باب تحريم الظلم، ج ٨ / ١٧.

رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥ / ١٦٠.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الأحكام، رقم: ١٣٢٢، ج ٣ / ٦١٢.

الرَّائِيَّ وَالْمُرْتَبِيَّ وَالرَّائِشَ الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا))^(١).

وكان القضاء عامًا بين الناس في المجتمع المسلم وطبق في العهد النبوي في مجتمع المدينة يدخل فيه المسلم وغيره، ومطلب العدل عام مع المسلمين وغيرهم، يقول تعالى: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]. وقد شرع رسول الله ﷺ كل ما من شأنه تنظيم العدل بتعيين القضاة في الأماكن البعيدة عن المدينة، فقد بعث ﷺ عددًا من الصحابة للقضاء في منازعات الناس، وكان ﷺ يوجههم^(٢). ولم يبق إقليم تابع لدولة الرسول ﷺ إلا حدد فيه الأمراء ومن يقضي بين الناس ويقيم العدل فيهم. ولعل أشهر دستور عالمي في القضاء هو كتاب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى

(١) رواه أحمد في مسنده، ج ٢/١٦٤، وج ٥/٢٧٩؛ والترمذي في كتاب الأحكام، حديث رقم: ١٣٣٦، ج ٣/٦٢٢؛ وابن ماجة في كتاب الأحكام، والدارمي في الأفضية.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٦٧.

الأشعري في القضاء.^(١) والذي لا شك فيه أن عمر استقاه مما تعلمه من النبي ﷺ في شؤون القضاء والعدل.^(٢)

ولا شك أن انتظام الحياة والسلام في أي مجتمع إنساني لا يقوم إلا على نظام وقوانين وشريعة واضحة يتساوى أمامها الجميع، مع وجود مرجعية قضائية لحفظ الحقوق، وقوة تساعد في إعادة الحقوق إلى أهلها ومنع الظلم وتطبيق أحكام القضاء. وهذا يدفع الجميع للأمان والوقوف مع هذا النظام العادل الضامن للحقوق، والمعين على الحياة الكريمة، والإنتاج الصحيح بعيداً عن سرقة الناس، والاعتداء على أموالهم أو أعراضهم أو أنفسهم.

وهكذا بنى الرسول ﷺ بتوجيهات إلهية وتطبيقات نبوية هذا المجتمع المسلم في المدينة وما وقع تحت حكمه وإدارته من أنحاء الجزيرة العربية على العدل، وأصبح هذا النظام نبراساً للدول الإسلامية ومجتمعاتها يزيد أمانها وإيمانها كلما اقتدت به وسارت على نهجه، وتضيع الحقوق كلما ابتعدت عن طريقه.

(١) شرح ابن القيم كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري في كتابه إعلام الموقعين عن رب العالمين بما يزيد على (٤٥٠) صفحة (انظر: ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج ١/٨٦ حتى ٤٠٦، ج ١/٢ - ١٦٥).

(٢) ابن القيم، إعلام الموقعين، ج ١/٨٥ - ٨٦؛ الهواري، الإدارة الأصول والأسس العلمية، ص ١٧٦.

وقد ألف العلماء وفقهاء الشريعة في هذا المجال ما يصعب حصره من تراث علمي شرعي عدلي إداري قانوني سياسي، يمكن أن ينظر له من ناحية مدنية.^(١) وقد جهله كثير من أبناء الأمة، وتجاهله كثير من القادة وأصحاب القرار فضاعوا وأضاعوا.

ترتيب الأمن والسلام:

الحفاظ على الأمن حاجة إنسانية قائمة، وضرورة ملحة في كل المجتمعات البشرية، وحينما بعث النبي ﷺ كانت بلاد العرب تعيش حالاً من الفوضى الأمنية، حيث يأكل الضعيف القوى، وتسود الفوضى، ويعجز الناس عن السفر وحماية أنفسهم إلا بقوة وأحلاف تتعاون لضبط الأمن، ولم يكن هناك نظام أو شرع وقانون يحمي الناس من اعتداء الآخرين.

كان الأمن للناس جميعاً في المجتمع، منذ أن ظهرت دولة الإسلام إلى الوجود في المدينة المنورة، وهو أول أهدافها.

إنه الجمع بين منع الجريمة، وإقامة الحدود على المجرم، وحفظ الحقوق، وتنظيم العدل، وإشاعة الأمن، وهذا أهم مطلب إنساني بعد

(١) انظر: محمد فتحي عثمان، من أصول الفكر السياسي الإسلامي.

الدين والتوحيد ومعه الرزق، وكلها وردت في إعجاز بين في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤]، إنه التوحيد والرزق والأمن مقترن في هذا الإعجاز الرباني، ومربوط ببيت الله وقبله المسلمين رمزاً للمكان والنظام والدين في وقت واحد.

وجاءت آيات القرآن لتذكر الناس بأهمية الأمن وقرنته بالرزق في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ءَامَنٌ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وبين

الله في قصص الأنبياء السابقين أهمية الأمن في حياة الأمم ففي قوم صالح قال تعالى: ﴿ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦]، وفي عموم القرى والأمة قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۗ ﴾ (١٧) وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۗ ﴾ (١٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٨-٩٩]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]. وقد كان ﷺ يبشر الصحابة في أكثر من موضع بأن الأمن سوف يسود بهذا الدين، ومن ذلك قوله لعدي بن حاتم: ((فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف...)).^(١) وقال ﷺ: ((والله ليؤمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)).^(٢)

(١) الطبري، تاريخه، ج ٣ / ١٥٠؛ وانظر: ابن أبي شيبه، المغازي، ص ١٤٢؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤ / ٥٨١.
(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين في مكة، ج ٥ / ٢٣٨.

كان الأمن والسلام بين الناس من أهم أهداف الإسلام، وبالتالي لزم الأمر محاربة الخوف وما يؤدي إليه، ولذلك كان هدف سلطة الدولة التي كان على رأسها رسول الله ﷺ تحقيق الأمن.

وكان ﷺ يؤكد في أحاديثه وخطبه على السلام بين الناس على تأمينهم وعدم الاعتداء عليهم. ومن أشهر ما قاله ﷺ في حجة الوداع يوم عرفة: ((أَلَا أَيُّ شَهْرٍ تَعْلَمُونَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟ قَالُوا: شَهْرُنَا هَذَا، قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ تَعْلَمُونَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟ قَالُوا: بَلَدُنَا هَذَا، قَالَ: فَأَيُّ يَوْمٍ تَعْلَمُونَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟ قَالُوا: يَوْمُنَا هَذَا، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ ذَلِكَ؟ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ، مُجِيبُونَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَيُحْكُمُ أَوْ وَيَلْكُمُ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا: يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)).^(١)

وقد أكد ﷺ على أهمية الأمن في حياة الإنسان بقوله: ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَاقٍ فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّهَا حِيزَتْ لَهُ

(١) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، حديث رقم: ٦٧٨٥؛ ابن حزم، المحلى، كتاب الحج، ج ٤ / ٨٤.

الدُّنْيَا)).^(١) وقد قال ﷺ: ((لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَرُوعَ مُسْلِمًا))،^(٢) وكان من دعائه: ((اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا)).^(٣)

وقد أدت دولة الإسلام في المدينة دورها في بسط الأمن والسلام بين الناس،^(٤) المسلمين وغيرهم، وكان ذلك عماد معاهدة المدينة بين الرسول ﷺ وعموم سكان المدينة وقبائلها، هو الدفاع المشترك، وبسط السلام فيها، وعدم إعانة من يسبون الخوف لأهلها من المُخَدِّثِينَ وغيرهم.^(٥)

وكان ﷺ يتابع بنفسه أمن المدينة وسلامة أهلها والقادمين إليها، ويقيم الحدود الشرعية على المجرمين الذين يفسدون في الأرض

(١) رواه الترمذي في الزهد، حديث رقم: ٢٣٤٦، ج ٤/٥٧٤.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥/٢٦٢.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢/٢٥.

(٤) للتوسع حول هذا الموضوع طالع: (د. عبد الله التركي، الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية بالرياض، ١٤١٧هـ).

(٥) انظر: عبد العزيز العُمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة - (معاهدة المدينة)، القسم الثالث، ص ٥٥١.

ويريقون الدماء ويخْلُون بأمن الناس وسلامتهم. وقد وضع البخاري في صحيحه كتاباً سماه (كتاب الحدود وما يحذر من الحدود)،^(١) أورد فيه عدة أبواب، منها باب (إقامة الحدود على الشريف والوضيع)^(٢) وباب (كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان)،^(٣) روى فيه عن عائشة رضي الله عنها: (أن قريشاً أهتمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها يعني رسول الله ﷺ؟ قالوا: ومن يجترئ إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: ((يَا أُسَامَةَ أَتَسْفَعُ فِي حَدِّ مَنْ حُدِّدَ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟!)) ثم قام فخطب فقال: ((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَابْتِغَاءَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَيْهَا)).^(٤)

(١) صحيح البخاري، ج ٨/١٣.

(٢) صحيح البخاري، ج ٨/١٦.

(٣) صحيح البخاري، ج ٨/١٦.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود باب إقامة الحد على الشريف

والوضيع، ج ٨/١٦.

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾،^(١) [المائدة: ٣٨]. وقد طبق الرسول ﷺ حد السرقة على المرأة المخزومية، ولم يمنعه شرفها ولا شفاعة أسامة بن زيد وغيره من أشرف مكة في منع تطبيق الحد الشرعي عليها. ويظهر أنه طبق حد السرقة أكثر من مرة في حياته.^(٢)

وكان لحد السرقة دور كبير في أمن الناس على أموالهم، وخوف السراق من إقامة الحد عليهم، حتى خفت السرقة، وكادت تنعدم في زمن النبي ﷺ. ولا شك أن أي بلد ومجتمع يقيم حد السرقة تقل فيه السرقة، ويأمن الناس على أموالهم.

وكان الأمر واضحاً أن في حد القصاص يمنع الناس من التفكير في القتل وإراقة دماء الناس إذا علموا أن دماءهم مهددة، وأن القصاص

(١) صحيح البخاري كتاب الحدود باب ١٣، ج ٨/١٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، ج ٨/١٥ - ١٨.

من ورائهم إن فعلوا ذلك، وبالتالي فإن في القصاص حماية للدماء وحياة للناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩) [البقرة: ١٧٩].

وقد عرف حد الحراية، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) [آل عمران: ٣٣-٣٤] وقد عرف النبي ﷺ حاجة الناس إلى الأمان وأن لا يراعوا، فأمن أعداؤه في مكة، حين دخلها فاتحاً، حيث أعلن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.^(١)

كان ﷺ واعياً بأهمية الأمان في حياة الناس، ولذلك كان من أوائل ما ذكر به الناس بعد الفتح تحريم سفك الدماء.^(٢)

(١) انظر: عبد العزيز العمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة - (فتح مكة)، القسم الثالث، ص ٧٩٧.

(٢) انظر سيرة ابن هشام، ج ٤/ ٤١٥.

بناء الآداب والأخلاق؛^(١)

إن المجتمعات البشرية عمومًا والمجتمع العربي خصوصًا فسدت أخلاقهم، وأساء بعضهم إلى بعض واحتقر بعضهم بعضًا.^(٢) وكانت محاولات الرسول ﷺ لتغيير مجتمع مكة من الداخل قوية وجادة، بمحاولته نشر الإسلام وما يرتبط به من شريعة وبناء أدبي وأخلاقي وترباط إنساني، وعلاقات حميمة بين أفراد المجتمع عمومًا، بداية بذوي القربى والآباء وأبنائهم في تلاحم بين الدين والمجتمع والأخلاق. وقد عاندت قريش ومنعت الدعوة ووقفت في وجهها، وحاربت رسول الله ﷺ وأذته وأصحابه، مما دفعه للبحث عن مكان آخر لإقامة المجتمع المسلم المميز بأدبه وأخلاقه وتلاحمه، فكانت الهجرة إلى المدينة وبداية

(١) لعل من أجل ما يطرح حول الموضوع ما جمعه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، من أبواب متفرقة في الأخلاق والصلة والسماحة والتعامل مع الجار والمسكين والأرحام وغير ذلك فيما يزيد على (١٢٨) بابًا، انظر: صحيح البخاري، ج ٧/٦٨ - ١٢٥.

(٢) للتوسع في هذا الموضوع راجع: د. أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحداد، أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، في ثلاثة أجزاء من إصدار دار الغرب الإسلامي، بيروت طبعة ثانية، ١٤١٩ هـ.

بناء المجتمع الإنساني المسلم الآمن، حيث توافد المهاجرون، وتآلفوا وتحالفوا وتآخوا مع الأنصار، ووجد بينهم ما عرف بنظام المواخاة الذي أظهر معادن المجتمع الصافي المتآخي كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾﴾ [الحشر: ٩].

كان بناء التآلف والتآخي لجيل الصحابة ولأجيال الأمة كلها من بعدهم يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، لقد كانت تزكية النفس وبناء الأخلاق من صميم دعوة الرسول ﷺ جاءت في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْ ضَلَّالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

وقد جاءت تشريعات الإسلام المختلفة لتقيم العلاقة الحسنة بين أفراد المجتمع،^(١) وبين العائلة الواحدة، فقال ﷺ: ((الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ))،^(٢) وقال: ((إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا))،^(٣) وركز الإسلام على تحسين علاقة الأبناء بأبائهم والآباء بأبنائهم، حيث كان الأمر الإلهي ببر الوالدين يعني إصلاح العلاقة بين جيل وآخر، وإشاعة التراحم والتواصل. وقد كان بر الوالدين مقرونًا بطاعة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، كما أكد القرآن على ذوى القربى وحسن العلاقة بهم في قوله تعالى: ﴿وَأَتَتْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦]، كما كان رسول الله ﷺ

(١) انظر: الخولي، محمد عبد العزيز، الأدب النبوي، عظات بالغة وحكم بالغة،

ط ١، دار القلم، بيروت، ١٤٠٦هـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢/ ٢٥٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره

من البخل، ج ٧/ ٨٢.

على أعلى درجات الخلق، كما وصفه الله تعالى في قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَ عَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وأمر الله سبحانه الناس بالتأسي به في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقد قال ﷺ: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)).^(١)

وكان ﷺ متواضعا يعود المريض، ويتبع الجنائز ويحيب الدعوة ويكره أن يقوم له الناس، يتواضع مع الكبار والصغار، حتى أن الغريب إذا جاء وجده بين أصحابه غير متميز بجلسته. كان جوادا يأمر بالجود، كريما يأمر بالكرم عفيفا يأمر بالعفة والاستغناء عن الناس، شجاعا حليما يأمر بالحلم، رفيقا يأمر بالرفق، طيب الرائحة نظيفا يأمر بذلك، ويأتي على رأس ذلك كله حسن الأدب مع الله سبحانه وتعالى، ابتداء بالتوحيد والرضا بعبوديته، وحسن الظن به والتوكل عليه، والخوف منه والرضا بما قسم، ورجاء ما عنده، وتقواه وخشيته في الغيب والشهادة، والأنس بذكره وشكره وحسن عبادته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

(١) صححه الألباني، انظر: مسند الإمام أحمد، ج ٢ / ٣٨١؛ وعنده لأتم صالح الأخلاق.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ [المؤمنون: ٣-٤]، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكَرُكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ٦٩]، وقد قال ﷺ مذكراً بحسن الأدب مع الله: ((اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، احْفَظُوا الرَّأْسَ وَمَا حَوَى، وَالْبَطْنَ وَمَا وَعَى، وَادْكُرُوا الْمَوْتَ وَالْبَلِيَّ)).^(١)

وقد قال ﷺ: ((فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ))^(٢) ومن حسن الأدب مع الله الإنابة إليه، والاستغفار والرجوع والفرار إلى الله،

(١) الإمام أحمد في مسنده، ج ١/٣٨٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة، ومن

تستر فالستر أفضل، ج ١/٧٣.

كما قال تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٧]، [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ومن الآداب التي تربت عليها الأمة الإسلامية حسن الأدب مع رسوله ﷺ في حياته وبعد مماته، كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَأَنْقُوا لِلَّهِ إِنَّا لَنَسْمِعُ ۙ عَلَيْهِمْ ۙ﴾ [١] ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۗ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۗ﴾ [٢] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۗ﴾ [٣] ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَّرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۗ﴾ [٤] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۗ﴾ [٥] [الحجرات: ١ - ٥]، وقد

أمر القرآن أصحاب النبي ﷺ بإتباع أمره وعدم معصيته في قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وأكد على حسن الأدب مع الرسول ﷺ وأن لا ينصرفوا عنه إذا كان في أمر جامع إلا بإذنه ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٢ - ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾
 وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا نَفْسٌ مَعَكُمْ مَعْرُوفَةٌ
 إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا
 فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
 إِلَّا أَلْبَاسُ الْعَمِيئِ ﴿٥٤﴾ [النور: ٥١ - ٥٤]. كان ﷺ زاهداً في الدنيا
 ويأمر بذلك، اتصف بأعلى الصفات التي تحث على النظافة واحترام شعور
 الآخرين في مأكله ومشربه وملبسه وشعره ومظهره، وكان يأمر بإشاعة
 المحبة والسلام بين الناس، قال ﷺ: ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ
 مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوْطُؤُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْلِفُونَ
 وَيُؤَلَّفُونَ)).^(١)

كان ﷺ يقول: ((من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته
 منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويأتي إلى
 الناس ما يحب أن يؤتى إليه)).^(٢) كما قال ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،
 لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدْرِكُكُمْ عَلَى

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب فضائل الصحابة، ج ٤/٢١٨؛ والإمام أحمد
 في مسنده، ج ٤/١٩٣.

(٢) انظر: أبو بكر الجزائري، منهاج المسلم، ص ١٠٣.

شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمْوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَسُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)).^(١) وكان ﷺ يسلم على الصبيان إذا مرّ بهم.

وقد أمر الله بالاستئذان وإفشاء السلام كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

كما كان ﷺ يأمر بالرفق وهو من أسباب الألفة في الأسرة والمجتمع فقال: ((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ))،^(٢) كما قال: ((مَا كَانَ الرَّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ)).^(٣) وقد طبق الرسول ﷺ الرفق واللين

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ج ١/٥٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ج ٧/٨.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر، باب فضل الرفق، ج ٨/٢٢؛ ورواه الإمام

أحمد في مسنده، ج ٦/٥٨، ١١٢.

السَّلَامَةَ مِنْ مَصَارِعِ السُّوءِ))^(١) ولما دخل ﷺ مكة فاتحاً كان متواضعاً مطأطئاً رأسه بلا فخر ولا خيلاء.^(٢) كان يقف مع المرأة الضعيفة والصبي يسمع إليهم ويحدثهم ويقضي حوائجهم.^(٣) ولعل حديث أنس يشرح ذلك في قوله: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُ الْمَرِيضَ، وَيَشْهَدُ الْجَنَازَةَ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ).^(٤) وكان لا يأنف أن يُردف معه رجلاً آخر أو صبيًا، فكان كثيرًا ما يردف أسامة بن زيد وﷺ ويردف بعض نسائه أحيانًا.^(٥) وقد قال ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِي بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَفْخُرَ أَحَدٌ عَلَى

(١) أحمد بن عبد العزيز الحداد، أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، ج ١ / ٧٧.

(٢) انظر: عبد العزيز العُمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة - (فتح مكة)، القسم الثالث، ص ٨٠٢.

(٣) انظر: صحيح مسلم، باب قرب النبي ﷺ من الناس.

(٤) الترمذي، كتاب الجنائز، باب، (٣٢)، حديث رقم: ١٠١٧، ج ٣ / ٣٣٧.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الرجل جعلني الله فداك،

أحد)).^(١)

ويعمل ﷺ مع أصحابه في السفر، فيحتطب ويقوم بجزء من العمل كغيره من الناس. وقد شارك في بناء مسجده، كما شارك أهله في أعمالهم المنزلية: (يكون في مهنة أهله).^(٢) وقد اعتاد على الحياء ﷺ ووصفه الله بذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَجِيءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِيءُ مِنَ الْحَقِّ ﴿٥٣﴾ [الأحزاب: من الآية: ٥٣]، وكان يدعو إلى الاعتدال في التوفيق بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

(١) رواه ابن ماجه في سننه، باب الحياء، حديث رقم: ٤١٧٩، ج ٢/ ١٣٩٩.
(٢) من حديث عائشة ؓ عند البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله، ج ٧/ ٨٣.

لقد كان عليه السلام حريصاً على معرفة الصحابة حبه لهم، ولذلك حدث معاذ بن جبل رضي الله عنه يوماً وقال: ((يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَنَا وَاللَّهِ أُحِبُّكَ، فَقَالَ: أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))،^(١) قال عليه السلام: ((إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعَلِّمُهُ أَنَّهُ مُحِبُّهُ))،^(٢) كما كان يحث على كل ما يشيع المحبة بين الناس، كالزيارة والهدية،^(٣) والابتسامة التي قال عنها عليه السلام: ((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ))،^(٤) وعلمهم أن يجيئ بعضهم بعضاً ﴿وَإِذَا حُدِّثْتُمْ بِنَحِيَّتِهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، وقد وضع البخاري في صحيحه في كتاب

(١) انظر: مسند الإمام أحمد، ج ٥/٢٤٥.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/٣٠.

(٣) سنن الترمذي، كتاب البر، ص ٣٤؛ ما جاء في قبول الهدية والإثابة عليها، حديث رقم: ١٩٥٣، ج ٤/٣٣٨.

(٤) سنن الترمذي، كتاب البر، ص ٣٦؛ وما جاء في صنائع المعروف من الحديث، رقم: ١٩٥٦، ج ٤/٣٤٠. جمع عبد الله نجيب سالم مرويات التبسم في السيرة النبوية في كتاب سماه "ابتسامات نبوية"، دار اقرأ الدولية، ط ١، القاهرة ١٤٢٧هـ.

الاستئذان، باب إفشاء السلام من الإسلام،^(١) كما وضع في صحيحه في كتاب الإيمان، باب السلام من الإسلام، ووضع الترمذي في صحيحه، باب ما ذكر في فضل السلام.^(٢)

كما منع القرآن الكريم تميّز الناس بعضهم على بعض، وذكرهم بأصلهم الواحد وحرّم أن يسخر بعضهم من بعض في قوله تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١١ - ١٣].

(١) انظر: صحيح البخاري، باب ج ١٢٨/٧.

(٢) صحيح البخاري، ج ١٢/١؛ صحيح مسلم، ج ٢/٧؛ وانظر: صحيح الترمذي، كتاب الاستئذان، ج ٥/٥٢.

وأكد على إخوة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، وأوجب الإصلاح بينهم في حال النزاع والوقوف ضد الباغي والاستمرار في الإصلاح في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَافَيْتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

كما نهى ﷺ عن الغيبة،^(١) وعن احتقار الناس بعضهم بعضاً: ((بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم))،^(٢) كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنُوبَ عَلَيْهِمْ أَقْصَاصُ فِي الْقَنَلِ الْحَرِّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَانْبِاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّنَ

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب البر، باب ما جاء في الغيبة، ج ٤/ ٣٢٩.

(٢) رواه الترمذي في كتاب البر، باب (١٨)، ما جاء في شفقة المسلم على المسلم،

حديث رقم: ١٩٢٧، ج ٤/ ٣٢٥؛ والإمام أحمد في مسنده، ج ٣/ ٤٩١.

رَبِّكُمْ وَرَحْمَةً فَمَنْ أَعَدَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

كل هذه المساواة وتقدير الآخرين والإصلاح بين المتنازعين من أجل بناء مجتمع إسلامي أخلاقي متحد ومترابط، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤]، وقد أمر الله رسوله ﷺ بالرحمة وأوصى

بها، وأمر الناس بالتواصي بها، وقد قال تعالى: ﴿ تَدْرَكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [١٧] [البلد: ١٧]، كما قال ﷺ: ((... إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ))^(١). وقال ﷺ: ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ أَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ...))^(٢). وأكد على التراحم العام بين المسلمين وأن يسود المجتمع: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرَ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))^(٣).

كانت الصلاة أهم العبادات عند رسول الله ﷺ، ومع ذلك فهو يتجاوز فيها رحمة بالأطفال، فقد روى البخاري عن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَجُوزُ فِي صَلَاتِي بِمَا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ٣٣، قول النبي ﷺ يعذب الميت ببكاء أهله عليه، ج ٢ / ٨١.

(٢) من حديث رواه الترمذي، كتاب البر، باب (١٦)، ج ٤ / ٣٢٤.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر، باب ما جاء في رحمة المسلمين، تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ج ٨ / ٢٠.

بِكَاثِهِ)).^(١)

وكان ﷺ رحيمًا بالرفيق والموالي، جعل عتقهم من أعظم القربات، ومن أبواب الكفارات المختلفة، وضيق الإسلام أبواب الرق بعد أن كانت مفتوحة في كل الشرائع والنظم زمن النبي ﷺ وأوصى بهم ﷺ خيرًا بقوله: ((إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ. فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ. وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ تَكَلَّفُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ)).^(٢) وقال ﷺ: ((لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ لِمَمْلُوكِهِ عَبْدِي وَلَا أُمَّتِي، وَلَا يَقُولَنَّ الْمَمْلُوكُ رَبِّي وَرَبِّي، وَلْيَقُلِ الْمَالِكُ: فَتَايَ وَفَتَايَ، وَلْيَقُلِ الْمَمْلُوكُ: سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي كُلُّكُمْ عَبْدٌ، وَالرَّبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)).^(٣)

(١) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب (٦٥)، من أخف الصلاة،

ج ١/١٧٢؛ ورواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٢٠٥.

(٢) أحمد بن حنبل في المسند، ج ٢/٢٤٧؛ ورواه البخاري، كتاب الإيمان، باب

المعاصي من أمر الجاهلية، ج ١/١٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٢٤٣٤؛ وراه مسلم في صحيحه،

حديث رقم: ٤٢٧٥.

إن هذا التراحم والآداب الإنسانية لم تقف عند المسلم والإنسان فقط، بل تعدتها تشريعات الإسلام إلى الحيوان ورحمته وإطعامه وعدم تعذيبه وقتله بلا رحمة وبلا فائدة، فكما قال ﷺ: ((فِي كُلِّ كَيْدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ))^(١). وقال: ((مَنْ لَا يُرْحَمُ لَا يُرْحَمُ))،^(٢) وقد قال ﷺ: ((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا))^(٣) وقد قال ﷺ: ((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا))^(٤).

كل هذه التعليقات في حقوق الحيوان سبق الإسلام بها العالم الحديث بقرون متعددة وهي من رحمة الله التي شرعها لعبادة المؤمنين به،

(١) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل سقى الماء، ج ٣/٧٧.

(٢) حديث متفق عليه من رواية أبي هريرة، انظر: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ج ٧/٧٥؛ وانظر: صحيح مسلم، حديث رقم: ٤٢٨٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، ج ٣/٧٧؛ ورواه مسلم في صحيحه، باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها، ج ٨/٣٥.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند، ج ١/٢١٦؛ ورواه مسلم في صحيحه، كتاب العيد، باب النهي عن صبر البهائم، ج ٦/٧٣.

المقتدين بهديه، ليكونوا رحمة لكل كائن حي، فما بالك بالإنسان.

وقد أكد الإسلام على مساعدة الناس والوقوف مع المحتاجين منهم، ومنع الأذى عن بقية الناس رجالاً ونساءً فقال تعالى في آيات متصلة ببعضها: قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ [النور: ٢٢ - ٢٥].

وأكد القرآن على حسن التعامل مع الجار والإحسان إليه،^(١) كما قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا

(١) وضع البخاري في صحيحه، باب الوصاة بالجار، ج ٧/٧٨، وهو حديث متفق عليه.

يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا فَحُورًا ﴿ [النساء: ٣٦]، كما قال ﷺ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ)).^(١) وقال ﷺ: ((مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُنِي)).^(٢) كما قال ﷺ: ((وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ" فقليل من هو يا رسول الله؟ قال: "الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ")).^(٣) ولم يتوقف الأمر على المسلمين، بل تعداه إلى غيرهم في أمر واضح وصريح في حسن التعامل معهم إن كانوا مسلمين في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [المتحنة: ٨]، وقد أمر ﷺ بالإحسان إلى الأسرى المقاتلين من الأعداء في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِينًا وَيَنِمُّونَ وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الأنعام: ٨-٩].

وقد أمر ﷺ بالإحسان إلى أسرى بدر وغيرها من المشركين،

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ج ٧/٧٨، والحديث متفق عليه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب الوصاة بالجار، ج ٧/٧٨، والحديث متفق عليه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، باب أثم من لا يأمن جارة بوائقه، ج ٧/٧٨؛ وهو حديث متفق عليه.

فكان المسلمون يطعمونهم مما يأكلون ويحسنون التعامل معهم مما أثر فيهم ودفعهم إلى الإسلام بعد ذلك.^(١)

ومن أروع الأخلاق التي بنيت عليها الأمة السخاء والعطاء،^(٢) وقد عرف العطاء في الأمة في كافة المجالات، ومن ذلك العطاء المالي سواء من خلال الزكاة أم الصدقات التي قرنت مع الصلاة في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصْلِينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٢٦﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾ [الليل: ٥ - ١٣]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا

(١) انظر: عبد العزيز العمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة - (غزوة بدر)، القسم الثالث، ص ٦٠٧.

(٢) وضع البخاري في صحيحه، في كتاب الآداب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، ج ٧ / ٨١.

مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُفْسِدُوا مَا تَنْفِقُونَ وَمَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وفي الحديث الشريف قال ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ)).^(١) وفي سبيل إبعاد الضغناء والتحاسد والبعد عن القتال لأجل المال قال ﷺ: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ)).^(٢)

هذا التوجيه الكريم لبناء الأمة ومجتمعها على الجود والعطاء كان يبارسه ﷺ من خلال حياته وسيرته، حتى عرف بأنه أكرم من على وجه الأرض، وكان يحث على الصدقة ولو بالقليل: ((اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ

(١) من رواية الترمذي في صحيحه، كتاب الأدب، حديث رقم: ٢٧٩٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر، باب تحريم الظلم، ج ٨ / ١٨؛ والإمام أحمد

في مسنده، ج ٢ / ١٦٠.

بِشَقِّ تَمْرَةٍ)).^(١) وقد كان المسلمون في زمانه يتنافسون في الصدقة والإنفاق على المحتاجين من المسلمين، وتجهيز جيوشهم وإكرام ضيوفه ﷺ، ويأتي في مقدمة هؤلاء عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي جهز جيش العسرة.^(٢)

كما كان الوفاء بالعهد من أهم أخلاق النبي ﷺ والمسلمون عموماً طبقها الرسول في حياته مع أصدقائه ومع أعدائه، وبنى المجتمع عليها، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة،

ج ٢/١١٤.

(٢) انظر: عبد العزيز العمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة -، (غزوة

تبوك)، القسم الثالث، ص ٨١٧.

[١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: ١]، وقد كان الرسول ﷺ يوادع ويعاهد عددًا من القبائل حول المدينة وفيهم لهم بعهدهم، كما عاهد بعض يهود عند وصوله إلى المدينة ووفي لهم حتى خان بعضهم، وقد عاهد قريشًا في صلح الحديبية ووفي بعهده معهم، وإن كان في ظاهره ظلم لبعض المستضعفين من المسلمين،^(١) وحينما تحدث الخيانة من الطرف الآخر فقد شرع الإسلام نبذ العهد والإعلان عن ذلك صراحة لا خيانة كما يفعلون، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

وأمر بإتمام العهد ولم ينقضه وأن يتم مدته، وقد جاء في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِنَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ

(١) رواه أبو داود في سننه حديث رقم: ٢٧٥٨.

لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُصُواكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ [التوبة: ١ - ٤].

كما كان أداء الأمانة من أساسيات الأخلاق التي بني عليها، قال
تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ﴿٧٢﴾
[الأحزاب: ٧٢]، وكان ﷺ مضرب المثل في قريش قبل البعثة
وبعدها حتى أنهم كانوا يسمونه الصادق الأمين، وكان الصدق سلوكه
وخلقه وصفه الله به في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ
بِهِٗٓ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ [الزمر: ٣٣]، وكان ﷺ يحث على
الصدق ويأمر به ويربي الناس عليه فقال: ((عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ
الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ
وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ
الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ

يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))،^(١) كما حذر ﷺ: ((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُوْمِنَ خَانَ)).^(٢)

أما في مجال الأخلاق الاجتماعية الأسرية، فقد اعتنى الإسلام ببنائها آخذًا في الاعتبار احتمالات الخلاف، وتشابك العلاقات، ولذلك جاءت الشريعة وتطبيقاتها في مجال الأحوال الشخصية والشرائع الأسرية بها في ذلك علاقات الزواج والطلاق وما يصحبها من مُشاحة، ونفقة ومتاع وحضانة وتربية ورعاية ومسؤولية، وجعل هناك حقوقًا واضحة وحدودًا مرعية من كل جانب، لا يظلم أحدٌ أحدًا، ولا يعتدي أحدٌ على حق أحدٍ.

وحذر المسلمين من تعدي تلك الأنظمة والقوانين الإلهية. ولعل ما ورد في سورة البقرة من تلك الأحكام والحدود يبين دقة التنظيم لهذه الجوانب، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَابِهِمْ تَرَبُّصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ۖ فَإِنْ

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر ولصلة، باب قبح الكذب، ج ٨ / ٢٩.
 (٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ج ١ / ١٤؛ ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب آية المنافق ثلاث، ج ١ / ٥٦.

فَأَمُّو فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾
وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا
خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعْلِنَنَّ أَحْتَىٰ بِرَيْبِهِنَّ فِي
ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ
دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ
بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا
أَلَّا يُفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا
أَفَدْتُمْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِنْ
طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْعَنَّ أَجَلَهُنَّ
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا
لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۗ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يُعِظُكُمْ بِهِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ
النِّسَاءَ فَلَنْعَنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا
بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ

ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطَهَّرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣٣﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا فَأَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالنِّقْوَةَ لِلَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣٤﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٣٥﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٣٦﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرِهِ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٣٧﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ

عُقْدَةُ الْتِكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٦﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٣٧].

وقد جاءت قواعد أخرى مختلفة حول ما يرتبط بالزواج ابتداءً من الخطبة إلى الفراق وأمر الأزواج بحسن المعاشرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، وسميت سورة بالنساء لترفع من مكانتهن في نظر المجتمع، كما جعلت الشريعة المرأة ممثلة في الأم أعلى الناس وأحقهم بالبر لدى الإنسان، وجعلت الحياة الزوجية قائمة على المودة والرحمة والسكن وهو أعظم معنى من الحب، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الإسراء: ٢١]، وأمر الزوج بمأزحة أهله ومداعبة زوجته، والتحبب إليها، وأمرت المرأة بطاعة زوجها،^(١) وقد جاءت الأحكام الشرعية لتحريم العلاقة

(١) الكمداني، فن تعامل النبي ﷺ في الحياة الزوجية، ص ٦٠.

الجنسية، وما يؤدي إليها خارج إطار الزوجية، لما في ذلك من تجنُّ على المواليد لغير آباء ومن إضعاف رباط الزوجية، وإفساد النساء على أزواجهن والرجال على زوجاتهم، إضافة إلى الأمراض الجسدية، واعتبر الزنا من الكبائر، بل وأمر الإنسان رجلاً أو امرأة بغض البصر، وأن لا ينظر إلا إلى من أحل الله له من الزوجات والمحارم.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ٣١﴾ [النور: ٣٠-٣١]، وهذه الآيات جامعة في السلوكيات والأخلاق التي تجعل الرجل لا ينظر إلا إلى أهله، والزوجة كذلك، ولا يكون النظر للآخرين ليعبد الإنسان عن أي سبب يؤدي إلى علاقة محرمة، فهي وقائية أولاً وعلاج مسبق لإيجاد الثقة بين الأزواج، وفي الوقت الذي بني فيه الرسول ﷺ المجتمع المسلم على أفضل الأخلاق فإنه حذر من الأخلاق السيئة، ومنها ظلم الناس في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ١٩﴾ [الفرقان:

[١٩]، وقال ﷺ: ((اتَّقِ دَعْوَةَ الْمُظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))،^(١) وحذر من الحسد في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤]، كما حذر من الغش فقال ﷺ: ((من غشنا فليس منا))،^(٢) وحذر ﷺ من الرياء كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ رِئَاءُ وَت ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤ - ٧]، وحذر ﷺ من الرياء فقال: ((«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ»))،^(٣) كما نهى عن الغرور والعُجب بالنفس وهو من أقوى المهلكات، كما قال ﷺ: ((ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ،

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب اتقاء دعوة المظلوم، ج ٣/ ٩٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، ج ١/ ٦٩.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده عن محمود بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه، ج ٥/ ٤٢٨.

وإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ)).^(١) وقد أمر ﷺ أن لا يغتر الإنسان بهاله أو عبادته أو قوته أو شرفه أو عمله، وقد أمر ﷺ ألا يغتر بشيء من ذلك كما قال ﷺ: ((لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ . قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمَدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ ، وَلَكِنْ سَدُّوا وَقَارِبُوا وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبَلُّغُوا)).^(٢)

كما كان ﷺ يكره الكسل ويتعوذ منه في قوله: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْمُرَمِّ)).^(٣)

ولعل من أهم ما قدمه الإسلام للمجتمعات البشرية العناية بالوقت وترتيبه، والتفريق بين عمل النهار وسكون الليل، واستغلال الأوقات فيما ينفع، وعدم إضاعة الوقت في ما لا فائدة منه. وفي تقسيم أوقات

(١) انظر: أبو بكر الجزائري، منهاج المسلم، ص ١٧٠؛ وانظر: ابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص ٢٣٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل الجنة بعمله، ج ٨/١٣٩.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، ج ٨/١٣٩.

١٠٠ بناء المجتمع المدني وتنميته في السيرة النبوية

الصلاة وتحديدها بدقة تظهر عناية الإسلام بالوقت، الذي هو حياة الإنسان ومادتها، في توزيع دقيق ليومه وما يرتبط به من عبادة وعمل، وما يحتاج من راحة. وحق الإنسان على نفسه في هذا الترتيب هو كحق الله على الإنسان في العناية بالعبادات وتنظيم أوقاتها.

ومن الواضح لكل ذي لب عاقل أن هذه التشريعات والتطبيقات الأخلاقية في عصر الرسول ﷺ ومن خلال سيرته ساهمت في ترابط المجتمع وبنائه وتلاحمه، ومحبته لما شرعه الله سبحانه وتعالى، وما جاء به رسوله ﷺ.

الخاتمة

يقول ابن خلدون: الإنسان مدني بطبعه أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وقد كانت الرسالة وما حمله الرسول ﷺ وما طبقه في حياته رحمة للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء].

وقد يظن بعض المعاصرين أن الاهتمام ببناء المجتمعات وقيامها على أسس حضارية مدنية إنما هي أمور حديثة أو جديدة.

ومن الاستعراض السريع والمختصر لبناء المجتمع المدني من خلال أحداث سيرة الرسول ﷺ تبين لنا من الشواهد والأحداث أن الرسول ﷺ سعى لتلبية حاجة العباد القائمة للاجتماع والتعاون والتكامل في حياة الفرد والمجتمع.

وحياة الرسول ﷺ كلها وجهاده في كافة نواحيه لبناء مجتمع مدني سلم للمسلم يحفظ كرامة الإنسان في مجتمع مدني متحضر، فقد كانت تسميته عاصمته بالمدينة بدلاً من اسمها القديم ذات مغزى كبير وكذلك وثيقة المدينة التي حفظت الحقوق للجميع وكذلك تنمية المجتمع الناشئ سكانياً ومعنوياً وعلمياً واجتماعياً واقتصادياً وإدارياً بل وصحياً، وكذلك تنظم العدالة للجميع بعيداً عن العصبية والعنصرية كل ذلك تم تعليمه للناس وتطبيقه في مجتمع المدينة الذي سار على العدل فيسر العلاقة وحسنها بين الناس وربطهم بالعبودية الحقة لله تعالى وهو أرحم الراحمين، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه]، وعلى دارسي للسيرة النبوية أن يجلوا هذه الحقائق ويربطوها بهذا المعنى الانساني الذي أراده رب العالمين، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤ ﴾ [الملك]، وأن يبرزوها ويبرزوا كل ما يمس حياة الانسان عموماً والمعاصر خصوصاً في

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى (ت، ١٥١هـ).
- * سيرة ابن إسحاق، المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازى، تحقيق محمد حميد الله، ط ٢ - قونية تركيا: الوقف للخدمات الخيرية، ١٤٠١هـ.
- ابن أبى شيبه، أبو بكر عبد الله بن محمد.
- * المغازى، تحقيق عبد العزيز بن إبراهيم العُمري، ط ١ - الرياض: دار اشبيليا ١٤٢١هـ.
- البخارى، الحافظ أبى عبد الله إسماعيل بن إبراهيم (ت، ٢٥٦هـ).
- * صحيح البخارى، (الجامع الصحيح) - الرياض: دار اشبيليا - بيروت: دار الفكر ط ١، ١٤١١هـ.
- البلاذرى، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي (ت، ٢٧٩هـ).
- * أنساب الأشراف، القسم الثالث، تحقيق عبد العزيز الدورى، القسم الرابع، تحقيق إحسان عباس - بيروت: ١٣٩٨هـ و ١٤٠٠هـ.

الحرف الصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمود أبو سلامة،
ط ١ - القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٤٠١ هـ.

خليفة بن خياط، ابن أبي هبيرة الليثي العصفري (١٦٠ - ٢٤٠ هـ).

* تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط ٢ - بيروت:
مؤسسة الرسالة ١٣٩٨ هـ.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني.

* سنن أبي داود، تعليق عزت عبير، ط ١ - حمص: دار الحديث
١٣٩١ هـ.

ابن سعد، محمد بن منيع الزهري (ت، ٢٣٠ هـ).

* السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ط ١ - القاهرة: الزهراء للإعلام
العربي ١٤٠٩ هـ.

* الطبقات الكبرى - بيروت: دار صادر (د. ت).

السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (٩١١ هـ).

* وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،
ط ٣ - بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠١ هـ.

القرطبي، عبد الله بن محمد بن فرج المالكي.

* أفضية رسول الله ﷺ - الدوحة: مطابع قطر الوطنية (د. ت).

ابن القيم، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت، ٧٥١هـ).

* زاد المعاد في هدي خير العباد - بيروت: المكتبة العلمية (د. ت).

* أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - بيروت: دار الفكر العربي (د. ت).

* الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق محمد حامد الفقي - بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).

* الطب النبوي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق وآخرون - الرياض: مكتبة الرياض الحديثة (د. ت).

ابن كثير، إسماعيل بن كثير، أبو الفداء الدمشقي (ت، ٧٧٤هـ).

* السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد - بيروت: دار المعرفة ١٣٩٦هـ.

* تفسير القرآن العظيم، ط ٢ - الرياض: دار كنوز اشبيليا ١٤٣٠هـ.

حركات، إبراهيم.

* السياسة والمجتمع في العصر النبوي - دار الآفاق الجديدة ١٩٩٠ م.

حميد الله، محمد.

* مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٤ -
بيروت: دار النفائس ١٤٠٣ هـ.

الخطوي، محمد عبد العزيز.

* الأدب النبوي، ط١ - بيروت: دار القلم ١٤٠٦ هـ.

الشامي، صالح.

* من معين السيرة، ط١ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٥ هـ.

عثمان، محمد فتحي.

* من أصول الفكر السياسي الإسلامي، دراسة لحقوق الإنسان
ولوضع رئاسة الدولة في ضوء الشريعة الإسلامية وتراثها التاريخي
والفقهية، ط٢ - بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٤ هـ.

بناء المجتمع المدني وتنميته في السيرة النبوية

١١١

مؤنس، حسين.

* التاريخ الصحي للرسول ﷺ - القاهرة: دار المعارف ٢٠٠٠م.

الوزان، د. عدنان بن محمد بن عبد العزيز.

* حقوق الإنسان في الإسلام وسماتها في المملكة العربية السعودية، ط ١

مجلد ٥ - بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٥هـ.

الصفحة	الموضوع
٥٩	ترتيب الأمن والسلام
٦٧	بناء الآداب والأخلاق
١٠٠	الخاتمة
١٠٢	المصادر والمراجع
١١١	فهرس الموضوعات
